في خطابة أرسطو الباتوسية

محمد الولي

1

يعتبر أرسطو الأب الحقيقي لعلم الخطابة. إن كتابه **الخطابة** الذي دشن ميلاد هذا العلم منذ أزيد من ثلاثة وعشرين قرنا ما يزال إلى اليوم منبع كل النظريات الخطابية المعاصرة. بل ما يزال إلى اليوم موضوع تأويلات وترجمات وتطبيقات وموضوع نزاع بين البلاغيين وعلماء الخطابة. وأعتقد أن الجزء الأهم الذي تعرض للإهمال هو ذلك المتعلق بالجوانب الانفعالية أو الباتوسية في العمليات الإقناعية أو الحجاجية.

احتلت الخطابة إلى جانب الفلسفة المراتب الخطيرة في الحاضرة الأثينية. إذ لم يكن هذان المجالان مجرد حقول معرفية تجرب في المختبرات وفي القاعات الدراسية بل إن التراع كان قائما بينهما بشأن السلطة والحكم. فمن ينبغي أن يحكم؟ الفلاسفة أم الخطباء؟. فإذا كان أفلاطون قد رجح، بعد مقتل أستاذه سقراط ضحية الاختيارات السياسية وبالتالي الخطابية، كفة الفلسفة، وذهب إلى أن الحاكم ينبغي أن يكون "ملكا فيلسوفا"، فإن السوفسطائيين كانوا يرون أن الحاكمية ينبغي أن تعود إلى الخطباء. هنا كانت الخطابة باعتبارها السبيل لممارسة الحكم، بضاعة باهضة الثمن. بل إن بروتاكوراس قد وضع لبرنامجه التكويني في الخطابة مقابلاً إجمالياً يعادل أجرة عشرة آلاف عامل أي عشرة آلاف دْرَاخْمَا(1).

2

ليس كتاب الخطابة مجرد كتاب مختصر موجه إلى التلقين البيداغوجي. بل كان أداة تندرج في سعير الحياة اليومية بل السياسية للأثينيين. كانت السياسة عند أرسطو العلم الأسمى لأنه يسعى إلى أسمى غاية وهي إسعاد كل الحاضرة أي كل المواطنين. أما باقي العلوم فإنها تسمو وتنحط تبعاً لعلاقتها بهذا العلم الأسمى. يقول أرسطو في كتابه الخالد **أخلاق نيكوماخ:**

"النقطة الأولى التي ينبغي أن نعتبرها بديهية هي أن الخير يشتق من العلم الأسمى، العلم الأهم من بين كل العلوم الذي هو علم السياسة. إنه العلم الذي يحدد ما هي العلوم الضرورية لقيام الدول أو

الحواضر، ما هي العلوم التي ينبغي للمواطنين أن يُقبلوا على تعلمها وبأي مقار ينبغي أن امتلاكها. وفوق ذلك ينبغي أن نلاحظ أن العلوم التي تستحق التقدير الأعظم هي تلك التابعة للسياسة؛ والقصد بهذا علم الاستراتيجية العسكرية وعلم الإدارة وعلم الخطابة أو البلاغة(2).

ولأمر كانت الأجناس الخطابة التي اعتنى بها أرسطو مرتبطة ارتباطا وثيقا بالمؤسسات السياسية. إن الخطابة الاستشارية هي تلك التي تبقى في مؤسسة الجمعية العامة حيث تتقرر مشاريع تدبير الدولة وحيث يجتمع كل المواطنين ويشاركون بالانتخاب والترشيح والتوجيه والتصويت. والمؤسسة القضائية حيث تتم محاكمة الجناة من مسؤولي الدولة ومرتكبي الجرائم الوطنية، والتجمع الشعبي حيث يتم الاحتفال بالمناسبات والأبطال القوميين. والظاهر أن خارج هذه الهياكل لا حديث لأرسطو عن الخطابة. واعتقد أن فن الشعر لأرسطو يتعذر فهمه، هو أيضاً، إذا لم يوضع في إطار المؤسسة السياسية الحاكمة في أثينا. أي باعتبار فن الشعر أداة لتكوين المواطن الحر والسوي و لم يكن الشعر هنا مجرد أداة لتزجية الفراغ كما هو الأمر عندنا اليوم.

3

يعتبر أرسطو ملكة الكلام بل الخطابة الملكة الأساسية التي تميز الإنسان عن العجماوات. بل يعتبر كفاءة التحاور المستند على القيمة الأسمى التي هي الفضيلة الإنسانية الخاصية المميزة للإنسان. يقول أرسطو:

إذا كان من المخجل ألا يتمكن الإنسان من الدفاع عن نفسه بالقوة العضلية، فإنه من العبث ألا يتمكن الإنسان من الدفاع عن نفسه بالكلمة، إذ بها، لا بالقوة العضلية، يتميز الإنسان. وإذا أمكن القول إن من يستعمل بشكل غير عادل الكلمة يمكن أن يحدث أكبر الأضرار، يمكن الجواب، باستثناء الفضيلة، إن ذلك مشترك بين كل الخيرات وبالخصوص الخيرات الأكثر نفعا مثل القوة والصحة والثروة والذكاء الاتسراتيجي، إذ بهذه الخيرات يمكن أن نجني فوائد جمة، إذا استعملت بشكل عادل، ويمكن أن تكون بالغة الضرر إذا استعملت بشكل يتنافى والعدل(3).

4

ومع ذلك فقد حاول أرسطو أن يعين للخطابة مرسى وسنداً علميا يجعلها قابلة للتعليم كما يجعلها جنساً جديراً بالتحليل العلمي. بل حاول أن يلتمس فيها ذلك المكون الثابت والمتكرر الذي يجعلها طيعة أمام التحليل العلمي الموضوعي. كأنه كان يسعى إلى إخضاعها لنفس قواعد المنطق

الصوري ولنفس قواعد الجدل أو الطوبيقا. وهي القواعد والملامح التي تكسب الخطاب صفة الموضوعية والبعد عن شوائب النزوات العاطفية والذاتية المتلونة. أليس هو القائل:

"كل الناس يمارسون إن قليلا أو كثيرا الجدل والخطابة، كل الناس يحاولون في حدود معينة دعم وتفنيد فكرة ما والدفاع والاتهام"(4).

والواقع أن هذا التغليب للمقومات الموضوعية أو الصورية للخطابة هو مجرد محاولة استبعاد الجوانب الذاتية. ولهذا طالما ردد فكرته بصيغ مختلفة بشأن هذا الأمر:

"نتعلم كل شيء إما بواسطة الاستقراء أو بواسطة القياس ".

وقولـــــه

إنني أسمي المضمر قياسا خطابيا، وأسمى الشاهد استقراءا خطابيا، كل الناس يبرهنون على إثبات ما بالشاهد أو بالمضمر، ولا يوجد غيرهما لأجل هذه الغاية(5).

وقولـــــه: "القياس المضمر هو الحجة بامتياز"

وهذا يعني بكل بساطة أن عنصر اللوغوس يحظى من خلال العبارات السابقة بالتفضيل بل بالهيمنة. وهذه الخطاطة هي:

الإيتوس ....واللوغوس ....والباتوس

التي يشرحها بعبارته:

"إن أنواع الحجج المميزة للخطاب ثلاثة أنواع: الأول يقوم على الخاصيات الأخلاقية للخطيب والثاني يقوم على الأحوال النفسية للمستعين والثالث على خاصيات الخطاب نفسه حينما يكون برهانيا أو يبدو أنه كذلك"(6).

وإذا كان أرسطو يتعامل هنا مع هذه العوامل على قدم المساواة فقد سبق له في الخطابة أن استنكر تجاهل دارسي الخطابة للمقومات المحايثة أو المنطقية أو الموضوعية كما استنكر تشديدها على المقومات الانفعالية أو الذاتية. يقول أرسطو:

" إن الذين يحررون اليوم المصنفات حول الخطابة لا يعالجون إلا جزءا صغيرا. إن البراهين وحدها هي ذات طابع صناعي حقا، وكل ما عداها فهي مجرد أشياء زائدة؛ والحال أنهم لا يقولون شيئا بصدد القياس المضمر، وهو الذي يمثل جسد البرهان. إنهم لا يتطرقون في أغلب الحالات إلا إلى أمور لا علاقة لها بالموضوع. إذ إن التجريح الشخصي وإثارة الشفقة والغضب وما شابه هذه الانفعالات لا تعالج الموضوع وإنما التأثير في القاضي وحسب [...] لا ينبغي تضليل القاضي بدفعه إلى الغضب أو

السخط أو الشفقة. كأننا بهذا نعوج المسطرة التي نعتزم استعمالها. من البديهي أننا ينبغي في نقاش ما أن نبين أن الحدث حاصل الآن أم أنه غير حاصل أو أنه قد حدث في الماضي أم لم يحدث؛ أنه شيء هام جدا أم قليل الأهمية أنه عادل أم غير عادل "(7).

إن أرسطو يكشف بشكل صارخ انحيازه جهة المقومات الموضوعية على حساب المقومات الانفعالية. إذ المادة المقترحة هنا للخطابة: ما هو موجود أو غير موجود ما كان موجودا أو لم يكن موجوداً، ما هو هام وما هو غير هام، ما هو عادل وما هو غير عادل، يمكن أن تخضع لمقاييس الصدق والاتفاق الموضوعي. والواقع أن هذه الدائرة الموضوعية في خطابة أرسطو هي التي تندرج فيها موضوعات القياس المضمر أو الخطابي وهو سيد المقوات الحجاجية الأرسطية والذي جعله سيد الخطابة القضائية لتداولها بين القضاة والمحامين وهم من المتعلمين والصفوة المثقفة. والشاهد أو الاستقراء الخطابي وهو يهيمن في الخطابة الاستشارية التي تجد مقامها في التجمعات الشعبية.

والواقع أيضا أننا حينما نتداول اليوم الكلام بشأن خطابة أرسطو فإن الذهن ينصرف إلى الخطابة بهذه الملامح الموضوعية أو المحايثة.

هذه البلاغة الأرسطية المختزلة إلى المقومات المشار إليها هي التي نفض عنها الغبار أب النظرية الحجاجية المعاصرة شايم بيرلمان في مصنف الحجاج أو البلاغة الجديدة(8).

5

ومع هذا فإن أخطر الإنجازات الأرسطية في براري البلاغة هي تلك المتعلقة بالجوانب الذاتية أو الانفعالية. وهي التي تستأثر بالكتاب الثاني من **الخطابة**. إلا أن البلاغة الأرسطية وفي ظل شروط تاريخية معينة تم تشذيبها وتدجينها وترويض جموحها، عبر اختزالها إلى بلاغة المحسنات التي استقرت صياغتها النهائية والتامة على يدي بيير فونتانيي في مصنفه الذائع محسنات الخطاب. وتم ذلك بتعطيل دماغها أي المقومات اللوجوسية وبتر قلبها أي المقومات الانفعالية أو الذاتية. وكان هذا البتر هو السبب المباشر لاغتيالها، لا لموتها، إذ إن المقومات اللوجوسية أو الموضوعية تمثل حلقة ارتباط البلاغة بالمنطق وبالفلسفة وبالسياسة؛ في حين أن المقومات الانفعالية تمثل الحلقة التي تربط البلاغة بالأخلاق والسياسة والسيكولوجية. وأعتقد أن البلاغة ما تزال إلى اليوم تتلمس الطرق التي توصلها إلى استعادة حقها وملكيتها على هذه الأدغال البلاغية. وأعتقد أن هذه المقومات تعيش اليوم حالة تصعلك في مجالات التواصل الإشهاري والدعاية والتلقين التربوي والتفاوض السياسي والاستنطاق.

إن العنصرين الذاتيين في خطابة أرسطو هما ذينك المتعلقين بالإيتوس والباتوس أي سيكولوجية الباث وسيكولوجية المتلقي أو المستمع. لقد كانت عناية أرسطو بالأول قليلة جدا لا تتعدى فقرة واحدة بصدد الخطابة الاستشارية حيث تكتسي الملامح الذاتية للخطيب أي الفاعل السياسي مكانة هامة. إن الخطيب يصبح مقنعا هنا لا بسبب أفكاره ومنطقه بل بسبب الثقة التي يفرغها عليه الجمهور نتيجة تملك الخطيب ناصية الخطابة وفنون الاستدراج الفعالة. إلا أن أرسطو يحصر هذا الأمر في تميز الخطيب بكونه سديداً وفاضلاً وباراً. يقول أرسطو:

ولابد للخطيب أن يتحلى بثلاث خصال كي يحدث الإقناع، لأنه بصرف النظر عن البراهين، فإن الأمور التي تؤدي إلى الاعتقاد ثلاثة. وهذه الخصال هي: **السداد والفضيلة والبر**، لأن الخطباء إنما يخطئون بينما يقولون وفي النصيحة التي يسدونها إذا فقدوا هذه الخصال الثلاث كلها أو واحدة منها. فإنهم إذا فقدوا اللب [أي سداد الاختيار]، كانت ظنونهم فاسدة وآرائهم غير سديدة، وإذا كانت آراؤهم صحيحة، فإن شرارتهم تحملهم على ألا يقولوا ما يعتقدون، أو إذا كانوا ذوي لب وخير، فإنه قد يعوزهم البر (حب الخير)، ومن هنا فقد يحدث ألا يسدوا خير النصائح، رغم أنهم يعرفونها. وهذه الخصال هي كل الخصال الضرورية، حتى إن الخطيب الذي يبدو أنه يملك هذه الخصال الثلاث سيقنع سامعيه لا محالة(9).

إن الخطيب إذا لم يكن سديد الاختيار لن تنفعه الفضيلة، فما جدوى الفضيلة عندما تتألف مع الغفلة. وحتى حينما يكون الخطيب سديدا وفاضلا فإن هذا لن يجدي نفعا إذا لم يكن الخطيب **باراً أو قاصداً النصيحة.** هي هذه الأمور المتعلقة بالإيتوس. ولعلمِكم فإن الإيتوس يلعب اليوم الأدوار الخطيرة في السياسة والتدريس والعلاقات العائلية. فكم من مدرس جاهل يحظى بقبول الطلاب لمجرد الرضا العاطفي لا بسبب الفعالية العلمية أو البيداغوجي، وكم من سياسي ناجح جداً لا بسبب برامجه الفعالة وقدراته الأخلاقية بل ناجح بسبب مجرد الرضا الذي يخلعه عليه الجمهور، وكثيراً ما حصل ذلك بسبب القدرات التهريجية للخطيب.

6

بعد الحديث عن الحلقتين اللوجوس، والإيتوس فلتكن هذه فقرة الحديث عن الباتوس. **الباتوس** أو التروع هو كما عدد أنواعه أرسطو في **الخطابة:** "الغضب والسكون والصداقة والكراهية والخوف والأمن والخجل والوقاحة والإحسان والشفقة والسخط والحسد والاغتباط".

ويؤكد في أخلاق نيكوماخ:

"أطلق النوازع أو الأهواء على الرغبة والغضب والخوف والأمن والحسد والفرح والصداقة والكراهية والألم والاغتباط والشفقة وفي كلمة واحدة، أطلق هذه الكلمة على كل الإحساسات المصحوبة بألم أو لذة"(10).

أو هو حسب تأويل ميشيل ميير:

"الباتوس هو ما يترع إليه إنسان نزوعا طبيعيا"(11).

الخطابة التي تستند على النوازع، أي ما يميل إليه الإنسان ميلاً عاطفياً مستديماً، هي التي يطلق عليها ميشل ميير **خطابة النوازع**. إن الأمر يتعلق بواجهة حجاجية لا تستند على المقومات الموضوعية مثل المضمر والشاهد بل على القيم الذاتية أو الانفعالية أو الباتوسية. هناك إذن في كل حالة، انفعال ما وميل طبيعي ومقام خطابي نريد من خلاله الانتقال من حالة إلى أخرى. أرسطو يعدد هذه الحالات الانفعالية ويضع لكل واحد منها اسما وعددها فاعتبرها ثلاث عشرة حالة انفعالية. هي التي أشرنا إليها سابقا. هذه الأحوال الانفعالية من جنس الانفعالات التي تتحدد باعتبار الشخص الذي يحس بها أو يعانيها والشخص الذي تتوجه إليه. إن الغضب والسكون والحب والكراهية والخوف والأمن والخجل والوقاحة والإحسان والشفقة والنقمة والحسد والاغتباط هي انفعالات نحو أشخاص أو أشياء. الأمر يتعلق بتعبئة شخص ضد آخر أو لصالح آخر. ولذلك فإن كل حالة انفعالية لها نقيض. أو يمكن أن يكون لها نقيض. إن الغضب يتعارض والسكون والحب يتعارض والكراهية والخوف يتعارض والأمن والخزي يتعارض والوقاحة والشفقة تتعارض والنقمة والحسد يتعارض والغبطة. إلخ إلخ. يقول أرسطو:

ينبغي أن نميز في كل حالة بين ثلاثة مظاهر: ففي ما يتعلق بالغضب – مثلا- في أي حالة يوجد الغاضبون، وضد من هم متعودون على أن يغضبوا وبصدد أي شيء أو موضوع يغضبون إذ إننا إذا اعتبرنا واحدا فقط من هذه المظاهر وليس باعتبارها كلها فلا يكون وارداً الإيحاء بالغضب. وكذلك الأمر بالنسبة إلى ما تبقى من النوازع(12).

وهكذا فإن الحجاج الجيد، بل الإقناع، يقتضي المعرفة بما يهز الذات التي نتوجه إليها بالخطاب أي ما يغيرها بل ما يحركها. إن باتوس الإنسان الحسود مثلا، يجعله متأثرا من كون الآخرين يستمتعون بالخيرات التي يحس أنه محروم منها بكيفية غير عادلة. إن الخطيب يستطيع أن يجعله بصيراً للظلم الذي يتجسد في هذه الحالة الموصوفة. وعلى العكس من ذلك فإن الرجل السخي أو المحسن سيكون قليل الشعور بهذا الجنس من الحجج: إن فعل الخير يحركه أكثر من إنكاره(13).

مثال آخر من أرسطو حول الخوف:

"وحينما يكون من الأفضل أن يحس المستمعون بالخوف من أحد فمن الأفيد أن يعمل الخطيب على تهيئتهم للخوف، وإشعارهم بأنهم في وضع ينذر بتعرضهم لأذى ما؛ إذ إن هناك من هم أقوى منهم وعانوا الأذى؛ وأن يبين أن آخرين في ظروف مماثلة لظروفهم قد عانوا أو يعانون، وأن هذا الأذى كان من فعل أناس لم يكن منتظراً أن يبدر منهم ذلك، وفي ظروف لم يخامر الضحايا ظن احتمال حدوث ذلك"(14) .

إلا أن نوازع المتلقين ليست سبائك معدنية، إذ بإمكان الخطيب أن يعبث بها كيفما يشاء فيتمكن من قلب العواطف والاختيارات من النقيض إلى النقيض، بل إننا ونحن نعيش عصر فوران وسائل وصناعة صور الناس والأشياء وصناعة والأوهام بل وعصر غسل الدماغ والتوجيه السيكولوجي وطغيان الشعور بالحرمان أمام المعروضات المشهدية بل السحرية والضجر المميت من الإيديولوجيات والتقنية الخارقة في حضرة العجز إزاء أتفه مشكلة. كل هذه الأوضاع يستطيع الخطيب أن يستغلها ليس لإقناع المستمع وحسب بل لكي يجعل منه دمية يعبث بها ويسخرها كيف شاء. يستطيع الخطيب باستغلال أوضاع الناس الاجتماعية والإيديولوجية والدينية والأسطورية ورغباتهم المقموعة وشهواتهم المكلومة أن يصنع منهم ما يشاء، وأحياناً يستطيع أن يقودهم إلى الانتحار أو خوض في الحروب الظالمة.

1- Henri _Iréne Marrou**, Histoire de l'éducation dans l'Antiquité**, T. 1, ed. Seuil, 1948, p. 87.
2- Aristote, **Ethique à Nicomaque**, ed. Livre de poche, 1992, p. 372
3-Aristote, **Rhétorique**, ed. Livre de poche,1991, p. 80
4- Aristote, **Rhétorique**, ed. Livre de poche,1991, p. 75
5- Aristote, **Rhétorique**, ed. Livre de poche,1991, p. 85
6- Aristote, **Rhétorique**, ed. Livre de poche,1991, p.83
7-- Aristote, **Rhétorique**, ed. Livre de poche,1991, p.p. 76-77
8-Chaim Perelman, Olbrecht tyteca, **Traité de l'argumentation**, ed. Université de Bruxelles, 1976.
9-Aristote, **Rhétorique**, ed. Livre de poche,1991, p.p. 182-183.
10- Aristote, **Ethique à Nicomaque**, ed. Livre de poche, 1992, p. 88
11- Michel Meyer, Introduction, in Aristote, **Rhétorique**, p. 33
12- , **Rhétorique**, p. 183
13-Michel Meyer, Introduction, in Aristote, **Rhétorique**, p.p. 32-33
14- Aristote, **Rhétorique**, p.p.206-207

صدر حديثا للأستاذ محمد الولي